آراء محمد السعيد بن زكري في مسالة التجديد وإصلاح التعليم بالجزائر

-مفهوم التقليد والتجديد

-تأثير المدرسة الإصلاحية

-الاحتكاك بالغرب

-نخبة مزدوجة الثقافة

مقدمة :

تعتبر الهجمة الاستعمارية الحديثة على البلاد الاسلامية في مطلع العصور الحديثة من أكبر التحديات التي واجهت الامة ونخبها، فأروبا التي استفادت من النهضة والثورة الصناعية وقطعت اشواطا كبيرة في مجال التقدم العلمي والتقني صارت تطمح الى بناء امبراطوريتها الاستعمارية فكانت البلاد العربية والإسلامية على مرمى حجر من اهدافها وطموحاتها. وكانت الجزائر فاتحة ذلك العهد المشؤوم في سنة 1830م.

طرحت مسالة الحداثة والتجديد في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر سواء من قبل الإدارة الفرنسية الراغبة في تثبيت سلكانها في الجزائر بطرح الأفكار الغربية ومناهج الحضارة الغربية في سبيل التخلص من هاجس الرفض المومن لوجودها في بلد إسلامي كالجزائر، او من قبل عناصر من النخبة الجزائرية الإصلاحية ولكن المرتبطة بالإدارة كموظفين في السلك الديني والتعليمي والذين أصيبوا بالانبهار من ملامح الحداثة التي بشرت بها فرنسا فاجتهدوا في سبيل الدعوة الى العصرنة وإدخال مناهج جديدة وطرائق مستحدثة بالاخص في مجال التعليم ،ويعتبر ابن زكري من اهم هؤلاء من خلال كتابه "أوضح الدلائل في اصلاح الزوايا ببلاد القبائل" الذي صدر في مطلع القرن العشرين بالجزائر.

حول مسالة التجديد:

التجديد في الاسلام هو بحسب مفكري الاسلام سنّة يضطلع بها علماء الامة في مراحل الوهن والضعف، وقد ورد في الاثر ان "الله يبعث على راس كل مئة سنة من يجدد امر دينها " وهكذا شهدت البلاد الاسلامية على مر الفترات والعصور ظهور مجددين عملوا على احياء الاسلام كالغزالي وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ....وغيرهم.

في الفترة الحديثة ارتبط التّجديد بحالة الانحطاط الداخلي بكل ابعاده وانعكاساته الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية من جهة، والتحديات الخارجية المتجسدة في الغزو الاستعماري،ممّا استوجب التفكير في سبل اعادة الامة لرشدها وبث روح جديدة ، بالعودة الى منهج السّلف الصّالح ومواكبة العصر وتحولاته المتسارعة في مختلف الاصعدة والمجالات .

صارت الجزائر جزءا من ذلك الحراك ، وأسهم علماؤها في جهود التجديد وذلك منذ بزوغ فجر النهضة الحديثة ،وان ظلّت عبارة عن جهود فردية لم يكتب لها الذيوع والانتشار ،فأفكار ابن العنابي في "السعي المحمود في نظام الجنود" وآراء حمدان بن عثمان خوجة في المرآة وغيره ،و الامير عبد القادر الجزائري في "مواقفه" ، كانت ثورة في المفاهيم اضيفت لتراث الحركة الاصلاحية .

سعى الفرنسيون الذي منذ وطات اقدامهم ارض الجزائر الى نفي العلماء وإبعادهم بشتى السبل عن امتهم وقضاياها المختلفة، الامر الذي اسهم في ضحالة الحياة الفكرية وجدبها ،واستوجب الحال انتظار تباشير النهضة الحديثة القادمة من الشرق.يصف البشير الإبراهيمي تباشير النّهضة في الجزائر بقوله :" إنّ أوّل صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح ، هي صيحة إمام المصلحين الشيخ محمد عبده وانّه جاهر بدعوة المسلمين في المشارق والمغارب، إلى الرّجوع للدّين الصّحيح، والتماس الهداية من القرآن والسّنة، وانّ لا فلاح لهم في دنياهم وأخراهم،

إلاّ بالعودة إلى تلك المنابع الصّافية" ،ويقول "إنّ تلك الصّيحة كانت صرخة في آذان المتربّصين بالإسلام، ولآذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات ، وللعلماء الجامدين أيضا ، لذلك كذبوه وعارضوه وقاوموا حركته،"ويضيف: "وحمل لواء الإصلاح بعده تلميذه الأكبر، ووارث علومه السيد محمد رشيد رضا، وقد كان ترجمان أفكاره والمنافح والمدافع عنه، فأكمل تفسيره الذي كان بدأه، وكتب حياة الإمام، وكمل مسيرة مجلة المنار".

لم تكن عملية استيعاب سيرورة التجديد بالامر الهيّن ،في بلد ظل مغلقا تحت اسوار الجهل والاستبداد والطرقية لفترة طويلة من الزّمن ، يصف النص التّالي للشيخ عبد الحميد بن سماية وهو عبارة عن رسالة توضيح تخص الالتباس الحاصل حول افكار محمد عبده ورسالته التجديدية مرسلة الى مفتي وهران محمد بن عبد الرحمان بالقول :« **إلا أنّ الرجل لما كان يتنزل في كلامه للعقول بما ألفته من الإنكار والأفكار والانظار في العلوم الجارية، وكثيرا ما يجارى الإفهام بما ألفته، فتجد الناس في أمرهم بين فرقتين : فرقة ألفت التّعبير بالعبارات القديمة وكادت أن تتخذ عندهم مما يتعبّد بذكره، ولا تحصل البركة والنّفع إلاّ بلفظه، فربما تطرّق إلى أذهانهم انّه زنديق، يحاول بعباراته تدريج النّاس إلى الأخلاق والأفكار الأوربيّة. وفرقة ألفت هذه الأفكار الجديدة والقوانين الحادثة، فهم كلّما سمعوا كلامه اخذ بمجامع قلوبهم وعظم في صدورهم.** »

والحق انّ هذه الرسالة التي نشرها المهدي البوعبدلي تميط اللثام عن الحدود الفاصلة بين اهل التقليد والتجديد بالجزائر في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،ففيه اشارة واضحة الى فئتين من اهل الرأي والعلم بالجزائر : فئة فهمت رسالة التجديد وانخرطت في سيرورتها وادلت بدلوها ويعرف اصحابها بالحزب العبدوي بالجزائر ومنهم ابن الخوجة وبن سماية وبن قدور ....وفئة معارضة لكل تجديد

ورافضة لكل انفتاح على الثقافة الحديثة ،وهذه الفئة بحد ذاتها يمكن ان تنقسم الى قسمين رئيسيين :

-فئة متخوفة من تغلغل الافكار الجديدة والتفسيرات الحديثة للنصوص الدينية والاجتهادات الحاصلة في صلة الدين بالحياة الحديثة خوفا على بيضة الاسلام من التغريب.

-وفئة تعارض التجديد وتتمسك بالتقليد بحكم تعارض ذلك مع مصالحها ونفوذها وامتيازاتها ... وعبّر توفيق المدني عن هذه الفئة بالقول "أصبح دين عامّة الجزائريّين، وان كان متينا مغلّفا بهذه البدع والأضاليل، التي يحرص الكثير من رجال الطّرق والزّوايا على إبقاءها وغرسها في القلوب لاستثمارها والانتفاع بها." ويضيف "وآل الامر من هذه الزّوايا والطّرق الى إحداث وثنيّة في الاسلام ما انزل الله بها من سلطان ، واصبح شيخ الطّريقة او المرابط في كثير من النّواحي يتّصف بأوصاف الرّبوبية .فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع ، وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط ، وهو منبع كل خير ومصدر كل شر ،وتفشّت اثر ذلك بدع واباطيل ،لا تشوّه صورة الاسلام السّمح وحده ، بل تسوّد وجه البشرية برمّتها ،يزعمون انهم يقومون بها زلفى وتقربا الى الله ، كضرب الدّفوف والرّقص واختلاط الرّجال بالنّساء ، وأكل الحشرات السّامّة والتمرّغ على الاشواك والتشبّه بالحيوان الاعجم في مشيته وأصواته ،سبحان رب العزّة عما يصفون ".

ويؤكّد بن حبيلس انّ التعصّب "يعمل على تثبيط التغير الاجتماعي في هذه البلاد وهو تثبيط لا ياتي من بسطاء القوم بل من اكابرهم ".اولئك الاكابر الذين في نظره يرفعون شعار المحافظة على التقاليد ،لكن في الواقع "انّ ما يؤرقهم هو مصالحهم الشخصية ".وما "ان تبتغي المساس بالتقاليد البالية حتى تقوم هذه الكتلة كالغول في وجهك مستعينة بالدين كي تثني كل طاقة مهما كان حجمها، وكي تقهر كل عزيمة

مهما كان ثباتها، وتعيق كل مبادرة مهما كان نبلها ". ويوجه سهام نقده اللاذع لهؤلاء العلية فيقول :"لقد حولتم هذه الديانة التي كانت عنوان الصلاح والفلاح الى ممارسات للموت والتخلف والظلامية ،وذلك بواسطة تراخيكم وسلبيتكم ،اختاروا بين الحياة والموت،لا ثالث بين الاثنين".

التجديد والتأثير الاوربي:

لقد أدت الاوضاع الجديدة التي نجمت عن الوجود الاوربي في البلاد الاسلامية وبالأخص بالجزائر، التي ميزها الاحتكاك المباشر مع الاوربيين نظرا لطبيعة الاستعمار الاستيطاني بها، الى تحوّلات كبيرة مست جميع مناحي الحياة، وخلقت اوضاعا جديدة غير مألوفة لدى عامة الجزائريين.

الواقع انّ الجزائريين لم يستوعبوا الوجود الاوربي منذ الاحتلال، وهو ما نجم عنه شراسة المقاومة المسلحة ثم الهجرة للديار الاسلامية كتعبير عن رفض الاخر المعتدي والمختلف في العقيدة والسلوك.

لكن ومنذ اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبتأثير من افكار حركة الاصلاح الاسلامي، وبدعم من بعض السياسيين الفرنسيين ايضا –لأغراض استعمارية بحتة–منذ عهد جول كومبون وجونار، تظهر بالجزائر افكار تجديدية، أسهم فيها عدد من العلماء والموظفين بالسلك الديني الرسمي وأساتذة المدارس الثلاث.

ابن زكري واصلاح التعليم بزوايا بلاد القبائل:

تعتبر افكار ابن زكري[1] في اصلاح التعليم بالزوايا بمنطقة القبائل التي عبر عنها في كتابه "اوضح الدلائل في اصلاح الزوايا ببلاد القبائل"، ثورة في هذا المجال، وقد عبر ابن زكري منذ مقدمة الكتاب ان الغاية من تأليفه نزع فتيل التعصب الذي صارت عليه الزوايا ببلاد القبائل ونزعتها نحو (التمرد) والعصيان بقيادة الزاوية الرحمانية، وقد عبر بصراحة ان ثورة المقراني كانت خطا فادحا وترتب عنها نتائج وخيمة على مختلف الاصعدة .

ابرز فيه المقاصد العشرة الهادفة الى عمارة الزوايا على الوجه المطلوب...وهي:

المقصد 1: إنشاء دفاتر خاصة بتقييد مصروف الزوايا وآخر بتقييد عدد الطلبة ببياناتهم الدقيقة ليكون تحت رقابة الحكومة ...

المقصد 2: تحديث طرق ومناهج التعليم بها بإدخال العلوم العصرية كالتاريخ والجغرافيا والسير والرحلات إضافة الى العلوم اللغوية والشرعية...

المقصد 3: تحديد مواقيت الدراسة.

المقصد 4: موافقة فرنسا على المشايخ المدرسين.

المقصد 5: أجرة المشايخ تؤخذ من الوقف...

المقصد 6: ضرب الآجال لإقامة الطلبة في الزاوية واقتراح جدولا زمنيا لكل فئة من الطلبة فسواء لحفظ القرآن أو حلقات الدرس..... ويتطرق الى أهمية زاوية الايلولي ويقرر لها كلاما طيبا حول نظامها وسيرها ... ويفرد لها بعض المقالات المنوهة بها وبشيخها [2] وبيان كيفية دخول الطلبة للسكن بقصد طلب العلم وشروط ذلك، وبيان كل ما تعلق بالقراءة والعبادة في الزاوية، وحول الجموع والمجالس اليومية والأسبوعية

[1]- ولد سنة 1267هـ/1851م ببلاد زواوة وبعدما حفظ القرآن لحق بأخيه الكبير الذي كان مدرسا بزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي ومن هنالك تنقل من زاوية الى اخرى لإتمام دراسته ثم دخل العاصمة سنة 1297هـ/1880م ودرس بزاوية سيدي محمد الشريف ثم عين مدرسا بالجامع الكبير ومن بعد بعد ذلك اماما بجامع سيدي رمضان وفي سنة 1313 هـ/ 1895م انتخب استاذا للفقه واصوله بالمدرسة الحكومية وتولى افتاء السادة المالكية في سنة 1326هـ/1908م كانت وفاته سنة 1332هـ/افريل 1914م.

(الجمعة) وحول نظامها الداخلي والمساواة بين الطلبة وتبيين أنواع الزجر والتأديب للمسيئين ومقالة حول القيام بالضيوف والزائرين والغرباء والمساكين وكذلك أكل الطلبة، ثم الحديث عن "القداديش" وهم صغار الطلبة ومهامهم ومقالة في القوانين السائرة بين القداديش وعوائد مجلسهم ثم المقالة العاشرة في الحقوق الواجبة بينهم وبين المجاورين لهم وفي بقية المقاصد يشير الى طرق تولي نظارة او رئاسة الزاوية فردية وراثية أم جماعية كانت، ثم يتحدث في المقصد الثامن عن غياب المشايخ عن الزاوية وكيفية استخلافهم ومنها شراء الكتب اللازمة في الزاوية وكيفية شرائها ومادتها وطرق استغلالها وأوقات مطالعتها ثم يتحدث في المقصد التاسع عن الإخوان وطقوسهم في الحضرة . ووجوب عدم مخالطتهم للطلبة. ويوصي في المقصد الموالي السلطات الفرنسية بإبقاء الزوايا على ما هي عليه من العادات القديمة خاصة في اكتساب أرزاقها وهي سبب دوام عمارتها.

الا ان من المفارقات الغريبة التي يلمسها الباحث هو عدم اكتراث السلطات الفرنسية بأفكار الشيخ ابن زكري ونصائحه الاصلاحية، رغم انه بدا متحمسا في مؤلفه لمرونة الفرنسيين تجاهها ، والحق ان عدم الاستجابة والاكتراث الفرنسي لها ،يؤكد نية الفرنسيين لتجهيل الجزائريين والوقوف امام كل بادرة ايجابية من قبل (الاهالي) الجزائريين .